

الإسهامات الثقافية للمرأة الأندلسية؛

ثنائية الحضور والتغيب

The Cultural Contributions of Andalusian Women;

The Duality of Presence and Absenting

حبّية عنقر*

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله كلية اللغة العربية واللغات الشرقية

مخبر أطلس الثقافة الشعبية الجزائرية

habiba.angar@univ-alger2.dz

تاريخ القبول: 2024-06-11

تاريخ الإرسال: 2024-01-31

ملخص:

تروم هذه الدراسة نقل مسارات في الحياة الثقافية والأدبية للمرأة الأندلسية، تقلّبت فيها بين الحضور الذي شَعَّ نتيجة التوقّد الفكري فأسهمت في عديد المجالات وتركّت بصمة مشرّفة في تاريخ الأندلس، وبين التغيب والتعتيم الممارس عليها حدّ التهميش والإقصاء رغم ما عُرف عن المجتمع الأندلسي الذي فتح الباب أمام النّساء تعليماً وثقافة، ما جعل التّصوّر العام يشي بحضور فاعل للمرأة، استطاعت من خلاله أن تطرق كلّ الفنون وظهرت أسماء عديدة لنساء أدبيات شاعرات وخطّاطات وطبيبات...، إلّا أنّ هناك محطّات سوداء في التاريخ النّسوي الأندلسي تعرّضت فيه النّساء للقهر والاستغلال، وأدبهن للتهميش والتغيب.

نحاول رصد حضور المرأة الأندلسية في النّتاج الأدبي وإسهاماتها الثقافية، في مقابل تغييبها من قبل بعض المؤرّخين، واستغلالها سياسياً وتهميشها ثقافياً وهذا باستجلاء ثنائية الحضور والتغيب.

الكلمات المفتاحية: أدب نسوي؛ أندلس؛ ثقافة؛ حضور؛ تغيب.

Abstract:

This study explores the cultural and literary journey of Andalusian women, navigating between their impactful presence driven by intellectual vigor, contributing to various fields and marking Andalusian history, and the systematic absenting and blackout, leading to marginalization and exclusion. Despite Andalusian society's openness to women in education and culture, there exists a duality of active female presence and historical neglect. The study aims to document Andalusian women's

*-المؤلف المراسل.

presence in literary production and cultural contributions, contrasting with their absenting by some historians, political exploitation, and cultural marginalization.

Keywords: Feminist Literature; Andalusia; Culture; Presence; Absenting.

مقدمة:

تمتعت المرأة الأندلسية بمكانة خاصة في مجتمع فتح أمامها آفاق التعليم والثقافة وحظيت بحريّة واسعة لم تعهدها النساء قبلها في المشرق والمغرب، فاستغلّت فرصتها إذ نهلت من دروب العلم والفنون، وحفظ لها التاريخ الأندلسي صفحات من المجد خطّت سطورها بحزم وجرأة واجتهاد، وكان حضورها لافتاً من خلال إسهامها العلمي والثقافي في بلاد الأندلس.

إلا أنّ المتتبع لأخبارها يجد أنّ حالها تأرجح بين الكرامة والدونية، تارة بإشعاع وتوهّج وتارة أخرى بذبول وتغيب في معاناتها من الاستغلال السياسي والظلم الاجتماعي والتغيب الثقافي، ما نتج عنه وجه مخالف مثل التغيب والتهميش، ما يدفعنا للتساؤل: كيف تجلّت ثنائية الحضور والتغيب في النتاج الثقافي النسوي الأندلسي؟

نحاول في هذه الدراسة رصد تجلّيات الحضور والتغيب بالوصف والتحليل استناداً على المنهج الوصفي التحليلي وهذا من خلال الإسهامات الثقافية للمرأة الأندلسية ومدى تحقيقها للذات الأنثوية في مقابل المتوقع والمرجومًا جادت به المصادر حول أخبارها.

لعلّ أهمّ حدث ثقافي واجتماعي فيما تعلق بالنساء؛ هو تصنيفهنّ الطبقي إلى حرائر وجواري، أمّا الحرائر فكانّ من بنات الأثرياء اللواتي ينتمين للطبقة الأرستقراطية أو من طبقة العامة، وأمّا "الجواري فكان عددنّ كبيراً وكنّ ينتمين إلى جنسيات مختلفة، ومن مناطق متنوعة في الأندلس.... يُطلق عليهن في المصادر القديمة اسم الفرنج وكنّ مرغوبات ومحبوبات"¹، وترجع كثرة عددنّ لسبب كثرة الغنائم والسبايا، وفي هذا يقول صاحب

¹ عبد الحميد شافع راوية، المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط قرطبة،

ط1، عين للبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2006، ص5049.

المُعجب في عهد ابن أبي عامر: "ملأ الأندلس غنائم وسبايا من بنات الروم وأولادهم ونسائهم، وفي أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجّهزون به بناتهم من الثياب والحلي والدور"¹. تميّزت بعض الجواري بسعة ثقافتهم لما تتلقاه من تعليم ودراسة، ويذكر المقري أنّ الجواري كنّ يُحملن إلى المعلمين لاختبارهن²، ومن المعلمين الذين اختصّوا بتعليم جوارهم: ما يذكره ابن بسّام عن ابن الكتاني الذي يقول: "في ملكي أربع روميات كنّ بالأمس جاهلات، وهنّ الآن عالمات، حكيمات، منطقيات، فلسفيات، هندسيات موسيقيات، نحويات عروضيات أدبيات خطّاطات"³، ومن هنا يتّضح اهتمام المجتمع الأندلسي بتعليم نسائه، وهو بهذا لا يُفرّق بين الحرائر والجواري في التحصيل العلمي.

بيد أنّ المفارقة التي ارتسمت في المجتمع الأندلسي تتجسّد في الثنائية المتضادة الحضور والتغيب، ونقصد بالثنائية الضدية "أنّ طرفي الثنائية متصلان، وأنّ ظهور طرف لا يعني غياب الطرف الآخر بل تخفّيه، فيمكن أن يحوي الطرف الظاهر من الثنائية في بنيته العميقة نسقا مضمرًا يتعلق برؤية خاصة للحياة بكلية أصدادها، وحين تتضارب هذه الأصداد وتتصادم تكشف جوهر الوعي الإنساني، وطبيعة الحياة وجوهر الصراع فيها"⁴. فالتناقض الظاهر يتضح من خلال حال المرأة التي عاشت حريّة جامحة في مجتمع فتح أمامها باب التعلّم والتثقيف وطالعنا على أسماء نساء طرقت عدّة ميادين (سياسية وفكرية وأدبية وعلمية)، فظهر الشقّ الأوّل من الثنائية الممثل بالحضور، لكنّه ذات المجتمع الذي جار عليها اجتماعيا وغيّب نتاجها الأدبي والفكري ثقافيا، واستغلّها سياسيا واضطهدّها اجتماعيا وأنتج الشقّ الثاني من الثنائية الممثل بالتغيب.

¹ المراكشي عبد الواحد: المُعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصحّحه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط1، مطبعة الاستقامة، مصر، 1949، ص38.

² يُنظر المقري التلمساني أحمد بن محمّد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، تح إحسان عبّاس، دط، دار صادر، لبنان، 1986، ص 286. 287.

³ ابن بسّام الشنتريني أبو الحسن علي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج3، تح إحسان عبّاس، دط، دار الثقافة، بيروت لبنان، 1997، ص 320.

⁴ الديوب سمر، الثنائيات الضدية بحث في المصطلح ودلالته، ط1، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية العتبة العباسية المقدسة، العراق، 2017، ص34.

1- مظاهر الحضور من خلال الإسهام الفكري والثقافي لنساء الأندلس

تميّزت المرأة الأندلسية من خلال مشاركتها الثقافية التي ساهمت في بناء الصرح الحضاري للأندلس، وفي ازدهار النشاط والحركة الأدبية والثقافية بعامّة، فعُرفت من النساء؛ الفقيهات الزاهدات والمحدثات والمقرئات والمعلّّّات والطبيبات والشاعرات الأديبات، كما خاضت المرأة الأندلسية في جميع مناحي الحياة فكانت المزارعة في الأرياف، والحائكة المساعدة في مصاريف البيت ناهيك عن مشاركتها السياسية.

1.1- الحضور وإسهامها السياسي

شاركت المرأة الأندلسية الرجل على المسرح السياسي بشكل مباشر أو غير مباشر فكان تأثيرها على الأمراء والخلفاء واضحا، ومن نماذج مشاركتها السياسية نجد:

أ. "عجب" والحكم الرّبضي: "لعبت" عجب" دورا هاما في بلاط بني أمية وفي قيادة دقة الحكم فهي تعتبر إحدى شهيرات النساء القرطيبات في عصر الأمير الحكم بن هشام الرّبضي، وقد بلغ من حبّه ووليه بها أن تسبّبت في عزل القاضي محمد بن زياد عن القضاء وذلك لمجاملته لها ومحاباته لابن أخيها الذي تلفظ بألفاظ مهينة للإسلام...، كما حصلت على قدر كبير من التعليم والتفقه في الدين والعلوم الأدبية واللغوية¹.

ب. طروب في عهد عبد الرحمن الأوسط وسطوتها جارية شمالية قادمة من بلاد الإفرنج في جنوب فرنسا أو مقاطعة قتالونية، وهؤلاء الجوّاري بصفة خاصة كان لهنّ حظوة في قرطبة، وهنّ الشقراوات اللواتي اختارهنّ الأمراء عشيقات مدلّلات، كانت طروب أحبّ نساء عبد الرحمن إليه، وأعظمهن سلطانا عليه، ورغم ذلك كانت أقلّهن وفاء له، ومع ذاك ترك الأمير عبد الرحمن الأوسط شعرا كثيرا يفيض بالحبّ والعذوبة يتغزل فيها، وقد دأبت طروب في أكثر من محاولة ليتولّى ولدها عبد الله العهد، ولكنّها لم تستطع تحقيق رغبتها فعزفت عن الأمر بعد عدّة محاولات فاشلة².

ج. أصبح أم المؤيد تجسّد المثل الأعلى في مشاركة المرأة سياسيا، من سيّدات النفوذ والسلطان والسياسة والإدارة والتدبير، امرأة من القرن الرابع الهجري، كانت تدبر شؤون البلاد الأندلسية بحرية مطلقة، ولم تكن من السيّدات الحرائر وإنّما كانت جارية مغنية

¹ عبد الحميد شافع راوية، المرجع السابق، ص 111.

² يُنظر المرجع نفسه، ص 116.111.

رائعة الحسن وحظيّة الخليفة المستنصر بالله (حكم من سنة 350 . 366هـ / 961 . 976م)، الذي كان يتوق للولد فأنجبت له صبح ولدين؛ الأول عبد الرحمن والثاني خليفة العرش هشام الملقّب بالمؤيّد¹، فما لبثت أن صارت سيّدة مطلقة تُؤلي وتُعزل وتُدني وتُبعد، وتُدير شؤون السلام والحرب، سيّدة شهيرة في عصرها، وتذكر الروايات أن وفاتها كانت أيام ولدها هشام.²

2.1- الحضور وإسهامها الأدبي والفكري

اعتنى الأندلسيون باللغة والأدب شعره ونثره، وجرى على الألسنة عذبا رقيقا حيث بلغوا فيه شأنا رفيعا، وأخذ الشّعْر بصفة خاصة جانب التميّز ولم تجد القوافي تربة خصبة تتحرّز فيها من قيودها خارج مهدها الأوّل في شبه الجزيرة العربية كما وجدت في الأندلس، شاركت المرأة الأندلسية حرّة وجارية على حد سواء في نظم الشّعْر، بحيث شكّلت ملمحا بارزا من ملامح الشّعْر الأندلسي، وكان إنتاجهن من ناحية القول والصوغ والجرس والإشراق والجرأة والرصانة والجزالة ما يدفع الدارس إلى ضرورة الوقوف في ساحته فاحصا متأملا مستبيناً ما فيه من أسباب الجرأة ومظاهر الإبداع والإمتاع³، نذكر على سبيل المثال:

أ. أم الكرم بنت المعتصم، هذه المرأة حلّقت عاليا في سماء المعالي وأحاطت بها المكارم من كلّ جانب، كريمة الأصول ابنة الملك المعتصم بن صمّاح صاحب المرية (توفي 484هـ)، كانت مع إخوتها الثلاثة من أعيان الأشراف؛ نشأت على حبّ العلم والمعرفة، وعاشت أم الكرم حياة الأميرات الأدبيات المتأدبات، إذ كان من عادة الملوك أن يعهدوا لأبنائهم وبناتهم إلى معلّّمت فاضلات بغية التعليم والثقيف والتّهذيب، واستظهار جواهر الأدب وعيون

¹ يُنظر حمدي مليكة، الإسهامات الحضارية للمرأة الأندلسية من عهد الدولة الأموية على غاية سقوط غرناطة، أطروحة دكتوراه، تخصص التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2013/2014، ص98.

² عبّاس دلال، المرأة الأندلسية مرآة حضارة شغّت لحظة و تشظّت، ط1، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت لبنان، 2019، ص73.

³ يُنظر رواية عبد الحميد شافع، المرجع السابق، ص129.

الأخبار والأشعار، فنظمت أمّ الكرم الشعر الجميل و فطنت إلى فن الموشّحات¹، وعشقت فتى من دانية كان يعيش في قصر أبيها يُعرف بالسمار² وفيه تقول(السريع):

يا معشرَ النَّاسِ ألا فاعجبوا ممّا جنته لوعة الحبِّ
لولاها لم ينزل بيدر الدجى من أفقه العلويِّ للثرب³

ب. حفصة بنت الحاج الركونية شاعرة أخرى من الشاعرات اللواتي ذاع صيتهن، وحفلت المصادر بذكرهن؛ أديبة شاعرة بلغت منزلة عالية في الشعر، جعلها لسان الدين بن الخطيب فريدة الزمان، في الحُسن والظرف والأدب، كانت أديبة نبيلة جيّدة البديهة سريعة الشعر، وبهذا كانت حفصة الركونية أستاذة الشواعر في عصرها، ومن رقائق شعرها قولها (الوافر)⁴:

أغارُ عليك من عيني رقيبي ومنك ومن زمانك والمكان
ولو آتي جعلتُك في عيوني إلى يوم القيامة ما كفّاني

ج. حمدة بنت زياد أو حمدونة من الشاعرات الوصّافات اللواتي سحرن الألباب برقيق الأشعار وعذبتها، شاعرة أديبة بارعة، صدحت في سماء الأدب والبلاغة شاعرة وصّافة، إحدى النساء اللواتي عطرّن التاريخ النسوي الأندلسي من وادي آش؛ (مدينة جنوب الأندلس) أبوها زياد المؤدّب أو المكتّب، وقد أنشأها على مائدة العلم والأدب. تقول في وصف واد آش (الوافر)⁵:

وَقَانَا لَفَحَةَ الرَّمْضَاءِ واد سَقَاهُ مُضَاعَفُ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ
حَلَلْنَا دُوْحَةً لَفَحْنَا عَلَيْنَا حُنُوُّ الْمَرْضَعَاتِ عَلَى الْفَطِيمِ
وَأَرْشَقْنَا عَلَى ظِلْمَاءٍ زُلَالاً أَلَدَّ مِنَ الْمُدَامَةِ لِلنَّديَمِ

¹ يُنظر جمعة أحمد خليل، نساء من الأندلس، ط1، اليمامة للطبع والنشر والتوزيع، دمشق بيروت، 2001، ص 127.122.

² بوفلاقة سعد، الشعر النسوي الأندلسي أغراضه وخصائصه الفنية، ط1، دار الفكر، بيروت لبنان، 2003، ص 79.

³ يوسف كريم واقدة، ديوان شواعر الأندلس، جمع وتحقيق، ط1، دار ومكتبة سامراء، العراق، 2020، ص102.

⁴ ديوان شواعر الأندلس 54.

⁵ المرجع نفسه، ص 61.

يَصُدُّ الشَّمْسَ أَنَّى وَاجَهَتُنَا فَيَحْجُبُهَا وَيَأْذُنُ لِلنَّسِيمِ
 د. ولادة بنت المستكفي كانت من أصحاب النفوذ والسلطان امتلكت صالونا أدبيا،
 ذاعت شهرتها حين فتحت أبواب قصرها للأدباء والشعراء ورجال الفكر، فكان مجلسها
 بقرطبة منتدى لأحرار المصر وفناؤها ملعبا لحياد النظم والنثر، واجتمع في ندوتها من
 معاصريها شعراء وأدباء ووزراء من الرجال والنساء يتمناها كل واحد منهم ويشتهيها¹.
 تقول²: (الكامل)

إِنِّي وَإِنْ نَظَرَ الْأَنَاؤُ لِبَهْجَتِي كَضَبَاءِ مَكَّةَ صَيْدَهُنَّ حَرَامُ
 يُحْسِبَنَّ مِنْ لَيْنِ الْكَلَامِ فَوَاحِشًا وَيَصُدُّهُنَّ عَنِ الْخَنَا الْإِسْلَامُ

كما عَجَّت مجالس الطرب والسمر والغناء بالجواري اللواتي عُرفن بحفظهن للأدب
 ونوادر الأخبار، خصوصا مَمَّنْ كَنَّ يتسمن بالملاحة و الجمال، وأخذت بعضهن طريقا إلى
 الشهرة أمثال الريمكية وغيرها كثيرات؛ كطروب جارية عبد الرحمن الأوسط وغاية المني...
 وبهذا فقد أسهمت المرأة الأندلسية بدورها الفاعل في مجال الأدب تحديدا الشعر قد
 لا يسع المقام لذكرهن جميعا.. ، وقد خصّها الأندلسيون بكتب منها طوق الحمامة لابن
 حزم الأندلسي؛ وفيه يحلل طبيعة المرأة ويؤبّ الكتاب تبويبا منتظما، وابن حزم نشأ في
 كنف النساء فأشرفن على تربيته وتعليمه وتحفيظه القرآن الكريم، ورؤيته الأشعار ودرّبه
 على الخط، وهذا يدلُّ على نبوغ النساء في العلم والأدب والمعارف والدين والفنون والثقافة،
 إذ يقول: "ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأنّي ربيت في
 حجورهن ونشأت في أيديهن، ولم أعرف غيرهنّ، ولا جالست الرجال إلّا وأنا في حدّ الشّباب
 وحين تبقّل وجهي، وهنّ علّمني القرآن، ورؤيني كثيرا من الأشعار، ودرّيني في الخط"³.

¹ يُنظر بوفلاقة سعد، المرجع السابق، ص 8483.

² ديوان شواعر الأندلس، ص 128.

³ ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاف، ج 1، تح إحسان عباس، ط 2، المؤسسة العربية
 للدراسات والنشر، بيروت لبنان، 1987، ص 166.

3.1- الحضور وإسهامها الديني والأخلاقي

ارتبطت أسماء كثيرة بالزهد والعفة والصلاح الديني والأخلاقي، وتسارعت الأندلسيات لمواكب الخيرات فأقبلن على العبادة وتفرغن لها، فشاع في الأندلس الفقيهاً والمحدثات والمُقرئات والخطاطات والمتصوّفات العابدات الزاهدات.

نذكر على سبيل المثال:

أ. مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري كلّ الذين تعرضوا لترجمتها أشاروا إلى أخلاقها وعفتها، ويبدو أنها كانت من أستاذات عصرها، تعلّم النساء الأدب وتحشمن لدينها وفضلها، كما كانت تنتقل بين بيوت إشبيلية تعلّم نساءها الدين والأدب والشعر، ولها بينهن منزلة محموددة لفرط حشمتها ونبالة خلقها وحسن بديعتها¹، حتّى شهِبها أدباء عصرها أنّها تحاكي مريم العذراء في عفتها والخنساء في أدبها وشعرها ف قيل فيها²:

أَشْهَتْ مَرِيَمُ الْعِذْرَاءَ فِي وَرْعٍ وَفُقْتُ خُنْسَاءَ فِي الْأَشْعَارِ وَالْمَثَلِ

ب. عائشة بنت أحمد القرطبية من الفقيهاً اللاتي لم يكن في مصرها من يعدلها فهماً وعلماً وأدباً وشعراً وفصاحةً وعفةً وجزالة، كانت عائشة هذه شديدة الشغف بالعلم والمعرفة، لها خزانة كتب نفيسة حتى قال عنها ابن باشكوال، كانت تُعنى بالعلم ولها خزانة علم كبيرة حسنة، ولها غنى وثروة، تعينها على المروءة³.

ج. خديجة بنت أبي محمد عبد الله بن سعيد الشنتيجالي من المحدثات سمعت مع أبيها صحيح البخاري عن الشيخ أبي ذر عبد بن أحمد الهروي⁴ لم تحد المرأة الأندلسية عن السنّة والحديث النبوي، فسمعت عن الشيوخ الأجلاء ذوي الحجّة، وحفظت عنهم ونقلت علومهم وعلمتها لغيرها، فروت الأحاديث وحفظتها.

¹ يُنظر جمعة أحمد خليل، المرجع نفسه، ص 365؛ يُنظر أيضاً ذيب حمادة ياسمين عبد الله، مظاهر الصلاح عند النساء المسلمات بالأندلس رسالة ماجستير في التاريخ، كلية الآداب الجامعة الإسلامية، غزة فلسطين، 2018، ص 97.

² نفع الطيب، ج4، ص291.

³ يُنظر جمعة أحمد خليل، المرجع نفسه، ص 19

⁴ هو عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير أبو ذر الأنصاري الهروي أصله من هراة، عالم بالحديث من الحُفَاط من فقهاء المالكية، يقال له ابن السماك، نزل بمئة ومات بها سنة 434هـ/1043م له تصنيف منها "تفسير القرآن" و"المستدرك على الصحيحين" يُنظر خير الدين الزركلي، الأعلام، ج3، ص 269.

أما الخطّاطات فحفلت بهنّ بلاد الأندلس، هذا لأنّ المسلمين اهتمّوا بالخط وعُنوا به عناية فائقة، حتى غدا من فنونهم المتميّزة، فظهرت طائفة من النّساء عُرفن بتجويد الخطّ وتجميله وأحبّين هذا الفن، مثالهنّ:

د. صفية بنت عبد الله الرّبيّ أديبة شاعرة موصوفة بحُسن الخطّ، وقد رُوي أنّ امرأة عابت خطّها حسدا فقالت صفية (الطويل)¹:

وعائبة خطّي قلتُ لها اقصُرِي فسوفَ أريك الدُرّ في نظمٍ أسطري
وناديتُ كفيّ كيّ تجودَ بخطّها وقربتُ أقلامي ورقيّ ومحبّـري
فخطّت بأبيات ثلاث نظمتُها ليبدؤا بها خطّي وقلتُ لها انظُرِي

لم تخلُ الأندلس من مشاركة المرأة في العلوم الطّبيّة منها، فتعلمن التمريض ومارسنه "وقد تخصّصن لا سيّما في أمراض النساء ، حيث كانت الطّبيبة تُستدعى في حالة الولادة الصعبة، وتأخذ أجرا غالبا تلقاء خدماتها"²، ومن بين الطّبيبات أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي "شاعرة أديبة نشأت في حجر أبيها ودرّسها الطب، ففهمت أغراضه وعلمت أسبابه، فكانت تشارك في هذا العلم"³.

كان للمرأة الأندلسية فضلٌ كبير، حيث تركت بصمة مشرّفة وصفحات وضّاءة في تاريخ الأندلس؛ بإسهاماتها الأدبية والدينية ومشاركتها السياسية والثقافية بعامة، ورسّخت سيرتها في كتب بعض المؤرّخين.

لكن رغم هذه المحطّات المشرّفة في التاريخ الأندلسي، إلّا أنّ المجتمع نفسه قد ظلّ لها وجنى عليها في محطّات أخرى وهنا يتجلّى الشق الثاني من الدراسة ممثّلا بالتغيب والتهميش.

2- مظاهر التغيب من خلال تهميش وإقصاء نساء الأندلس

تمثّلت مظاهر تغيب نساء الأندلس من خلال الظلم الاجتماعي والاستغلال السياسي والقهر النفسي الممارس عليهن، ولعلّ أهم حدث ثقافي مثّل تهميش وإقصاء المرأة في أعلى مستوياته هو تغيبها في المصادر التاريخية وكتب التراجم والأعلام من قبل بعض المؤرّخين

¹ ديوان شواعر الأندلس، ص 83.

² عبّاس دلال، المرجع السابق ، ص 98.

³ كحالة عمر رضا، أعلام النساء في عالي العرب والإسلام، ج1، دط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 159.

الذين اعتبروا الخوض في أخبار النساء ضرب من الكفر والعار الذي يستوجب غضّ الطرف عنه.

1.2- التغيب والظلم الاجتماعي

رأينا. فيما سبق من الدراسة. كيف قسّم المجتمع الأندلسي النساء بين طبقتي الحرائر والإماء، وكيف اهتمّ بفئة الجوّاري تعليماً ورعاية، ما شكّل ذواتهنّ المستقلة وأشعرهن بقيمتنّ وتقديرهنّ لأنفسهنّ.

لكنّ هل فعلاً يحقّ لهذه الذات بأن تستشعر هذا الاستقلال وهذه القيمة؟ طبعاً لا، فالرقّ يُعدّ سلباً للإنسانية ومظهراً لترسيخ العبودية، ثمّ إنّ إحساس الذات باستقلاليتها لا يعكس تحقّقه في الواقع مادامت في دائرة السبي، إذ هو شعور واهٍ سرعان ما يتلاشى فورما تصطدم ذات المرأة السبية بواقعها المرير.

"لقد كان امتلاك الجوّاري يتمّ بعد شرائهنّ من سوق النخاسة بواسطة عقد مكتوب يحزّره كاتب عدل، ومن شروطه وجود طرفي العقد (البائع والمشتري) وكتابة جنس الجارية واسمها ومواصفاتها وما تحسنه من صنائع وفنون ومعارف، والتمنّ المحدّد لبيعها... وكذا سلامة الجارية من العيوب، ويراعى في معرفتها إن كان العيب خفياً رأي ثقتين من قوالب النّساء وثقتين من أطباء الرّجال... ثمّ تدوين تاريخ العقد بالضبط"¹.

تعدّ هذه المقايضة من أبشع الصور الاجتماعية في استغلال النّساء وإقصاء حقّهنّ في العيش الكريم، فهو استلاب لكرامة الإنسان بغضّ النظر عن جنس صاحبه.

2.2- التغيب والاستغلال السياسي

جانب آخر عاشت في خضمّه النساء الأندلسيات يعكس تغيب ذات المرأة الأندلسية، وذبولها حدّ القهر ويفضح السائد الثقافي في المجتمع الأندلسي وهو الاستغلال السياسي، فقد وقعت المرأة في أنواع كثيرة من الاستغلال جرّاء إدخالها معترك اللعبة السياسية ودوائرها، وشكّلت المصاهرات مظهراً آخر من مظاهر إقحام المرأة الحياة السياسية، ويتمثّل دورها أنّها طرف في هذه المصاهرة بغية التقارب السياسي بين حكّام الأندلس أو للوصول لمنصب ومرتبة سياسية، سواء كانت هذه الزوجة أخت الحاكم أو ابنته، وقد تؤت هذه

¹ يُنظر يخلّف حاج عبد القادر، جوانب من حياة المرأة في المجتمع الأندلسي، مجلة عصور الجديدة، كلية العلوم الإنسانية جامعة وهران 1، المجلّد 11، العدد 3، نوفمبر، 2021، ص 101.

المصاهرات ثمارها، كما يمكن أن تؤول إلى نسق معاكس، إذ أنّ عددا من الملوك خانوا أصهارهم بعدما طمعوا بما لديهم، من ذلك ما قام به المقتدر بن هود من السيطرة على دانية وأخذها من صهره علي بن مجاهد عام 466هـ¹.

ودفعت المرأة الأندلسية ضريبة إحاطة السياسة بها فهي أول المتأثرات بالاضطرابات السياسية، ما جعلها تعاني من فقدان أب أو أخ أو زوج أو ابن، وأحيانا للسجن والغرامة والنفي مع أسرته، بالإضافة للأثر النفسي الذي يترتب عن فقدانها لمكانتها الاجتماعية والسياسية، كما وتتأثر الجوّاري بشكل أكبر خاصة جواري القصور بانتقالهن إلى مصير مجهول خاصة في حال تغيير السلطة، فيصبحن في سوق الجوّاري عرضة للبيع والشراء بعدما كنّ في رفاهية العيش.

وأوردت المصادر تعرّض المرأة الأندلسية للضغوط النفسية والتصفيات الجسدية، في زمن الحروب، ولعلّ من أبرز أنواع المعاناة تلك التي طالت أسرة المعتمد بن عبّاد بانتهاء عصر ملوك الطوائف وبداية العصر المرابطي، حيث أمر يوسف بن تاشفين بنفي المعتمد وأسرته إلى أغمات في العدوّة المغربية، فتبدّل بهم الحال من حال الملك لحال الذل والفقر، بالإضافة لتشتت الأسرة ومقتل أبي خالد وأبي النظر ولدا المعتمد على يد المرابطين، في دفاعهما على مملكة اشبيلية، وتخلّفت ابنته بثينة عنهم فأسرت فيمن أسر من الجوّاري وباتت جارية بعدما كانت من الأعيان، وتزيد معاناة المرأة من السيئ للأسوأ في قمة تناحر ملوك الطوائف فمن نتائج التغيرات السياسية أنّ زوجة حفيد المأمون بن ذي النون وابنتها اضطرتا للحاق به على الأقدام بعد أن نال منهما الجهد والتعب².

قالت الشاعرة بثينة واصفة الوضع الاجتماعي تحديدا في موضوع بيع الإمام وذلك بعد انهيار حكم أبيها (الكامل)³ :

فخرجت هاربةً فحازني امرؤ لم يأت في أفعاله بسدادٍ

¹ يُنظر المجالي أحمد حامد ، الدور السياسي للمرأة الأندلسية (92. 488 هـ / 711. 1091 م)، ضمن كتاب جماعي Islam and Gender (الإسلام والجندر)، ط1، قسم التاريخ الإسلامي والحضارة، أكاديمية الدراسات الإسلامية، جامعة مالايا، كوالا لامبور، 2011، ص208. 212.

² يُنظر (بتصرف) المجالي أحمد حامد ، المرجع نفسه، ص214. 215.

³ ديوان شواعر الأندلس، ص 25.

إذ باعني بئع العبيد فضمتني مَنْ صانني إلّا من الأنكادِ
وأرادني لزواجِ نجلٍ طاهرٍ حَسَنِ الخلائقِ من بني الأنجادِ

نستنتج ممّا تقدّم عن إسهام المرأة في الحياة السياسية، أنّ مشاركتها لم تكن تشريفاً لها ولا حظوة تنالها، بقدر ما كان استغلالاً في أبشع صورة، نتج عنه معاناة كبيرة بفقد الأحبة وتبدّل الحال والمآل بالنفي والتصفيات والسجن والعقوبة، كما أنّ اللعبة السياسية توجب الانزلاق في المياه العكرة، فتسقط المرأة من صفات الشرف والعزّ لصفات المكر والتحريض، حيث لعبت الأحداث السياسية بتقلباتها دوراً سلبياً في حياة المرأة، إذ أقحمت في معتركها مرغمة مستسلمة منقاداً لتغيّر الظروف وتبدل الحال والمآل، ودفعت ضريبة التغيرات السياسية غالياً بفقد الأحبة وتشتت الأسرة وتحول الحال وبهذا لم تعيش المرأة حياة هادئة مستقرّة بل حياة شابها مظاهر الاضطراب والقلق والخوف من المصير المرتقب.

3.2- التغيب والتميش الثقافي

تعرّضت المرأة الأندلسية للتغيب من طرف مؤرّخي الفترة ولا شك أنّ الثقافة التي تكوّن مجتمعاً ما تنعكس في خطابات مفكره ونقّاده ومؤرّخيه، يقول عبد الله عفيفي: "ولا أعلم كيف غفل مُتأدّبوا الأندلس ومؤلفوهم عن استقصاء شعر نساءهم والعناية بتقييده، فهم يُسمّون ولادة بنت المستكفي عليّة الأندلس، ويدعون حمدة بنت زياد المؤدّب خنساء الأندلس وهم مع ذلك لا يذكرون لكليهما إلّا القليل المحدود من الشّعر الذي أثّرت به مناسبة أو قيّدته حادثة، وقد لا يكون هذا من أفضل ما قالت الشاعرة، بل قد يكون فوق ذلك غثّاً تافهاً لا شأن له، في حين أنّهم حين دعوا ابن هانئ متنبّي المغرب، وابن خفاجة صنوبري الأندلس ذكروا لهما ما جلّ ودقّ من شعرهما، حتى لم يعد شيء منه خافياً على أحد، والعجب أنّ هذا المحدود الذي نُقل عن نساء الأندلس كان يتناوله مؤلّفو القوم بعضهم عن بعض، فليس هناك تبسّط في النقل، ولا استفاضة في البحث عن شعر النساء، فهل لم تأت خنساء المغرب بأكثر من بضعة عشر بيتاً من الشّعر أكثرها مداعبات ومطارحات؟ وهل لم تأت عليّة الأندلس بأكثر من عشرين بيتاً بعضها منسوب لغيرها؟ أقول ولعلّ ذلك

لأنّ أكثر الكتب التي وصلتنا عن حياة الأندلس أُلّف بعد سقوط هذا البلد العظيم، وأُلّف في بلاد خفي فيها أدب المرأة عن منال الأقلام فلم يحفل كتابها بها¹.

وإن كان طوق الحمامة قد حمل لنا أخباراً عن نساء الأندلس، فإنّ ابن حزم "لم يُخالف نظرة مجتمعه في سيادة العنصر الذكوري، كما يُصوّر لنا حياتها التي تدور في فلكه ولا تستطيع الابتعاد عنه"²، إذا كان له موقف خاص بشأّهن يصل حدّ التعصّب حين قال: "ولا أعلم علّة تكمن هذا الطبع من النساء إلّا أنّهن متفرغات البال من كل شيء إلا من الجنس ودواعيه والغزل وأسبابه... لا شغل لهن غيره ولا خلق لهن سواه"³.

ومن العبارات النقدية التي تعزز معطيات النبذ الثقافي للمرأة الشاعرة، وتؤكد ذكورية الشّعرا ما قاله ابن نباتة في كتابه "سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون" عند إيراد بيتين منسوبين إلى ولادة بنت المستكفي (وممّا يُنسب إليها وهو عندي كثير على شعر امرأة) ومثل هذا القول لا يُخفي تدخّل اليد الثقافية في إقصاء وتهميش المرأة الشاعرة لدرجة استكثار عليها بيتين من الشّعرا تعجب ابن نباتة من أن يكونا لامرأة⁴.

والبيتين (السريع):

لِحَاظِكُمْ تَجْرَحُنَا فِي الْحَشَى وَلِحَظُنَا يَجْرَحُكُمْ فِي الْخُدُودِ
جُرْحٌ بِجُرْحٍ فَاحْمِلُوا ذَا بَدَا فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ جُرْحَ الصُّدُودِ

وفي واقعة مشابهة وتعليق يعكس تغييب الثقافة للإبداع النسوي، ما علّق به بدر الدين الصديق عند إيراد أبيات حمدة بنت زياد، منسوبة إلى ولادة بنت المستكفي في كتابه "نزهة

¹ عفيفي عبد الله ، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ج3، ط1، مكتبة الثقافة، المملكة العربية السعودية، 1930، ص 148.149.

² ابن خيرة رقية، صورة المرأة الأندلسية من خلال كتاب طوق الحمامة في الألفة والإلاف لابن حزم الأندلسي (ت456هـ/1064م)، الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، العددان 5 و6، جوان 2014/2015، ص239.

³ الطوق، ج1، 165.166.

⁴ حربي جاد الله شيرين ، صلاح محمد جرار، (2021)، موقف النقاد ومؤرّخي الأدب من شعر المرأة الأندلسية، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد 17، العدد 2، 2021، ص 192.

الأبصار والأسماع" ومن شعرها ما رواه صاحب قلائد العقيان حيث قال: (أستحي أن أقول شعر امرأة، فإنه يعجز عنه فحول الرجال)¹.

وبناء على ما تقدّم فليس غريبا ما أخذه المراكشي في كتابه "الذيل والتكملة" على ابن الأبار القضاعي قائلا: "وأقبح من هذا كلّهُ وأشنع ذكره نساءٌ تُزوّج الصحفُ عن تسويدها بذكرهنّ فيها مع أهل العلم الذين هم خواص عباد الله... نستعيز بالله من إعمال القلم في ذكر واحدة منهنّ، ونرى الإعراض عنه ديناً"²، ومع كل ما يحمله هذا النص من نظرة دونية للمرأة تصل حدّ تشبيهها بنجاسة تلوث وتسود الصحف عند ذكرها، فلا يمكننا تعميم رأيه على بقيّة المؤرخين.

الخاتمة:

فتح المجتمع الأندلسي الباب أمام المرأة للحصول العلمي بكلّ أشكاله ولم يفرق في ذلك بين الحرّة والجارية لكنّه لم ينف نظام الحريم فقُسّمت النّساء لفئتي الحرائر والإماء، فغدت ظاهرة بيع وشراء الرقيق مظهرا مألوفاً شُرّعت من خلالها عبودية الذات الإنسانية بغض النظر عن الجنس سواء كان العبد المملوك رجلا أو امرأة.

شكّلت المصاهرات المبنية على المصالح السياسية أبشع أنواع الاستغلال السياسي الذي تعرّضت له طائفة من نساء الأندلس كما دفعت المرأة ضريبة غالية نتيجة إحاطة التغيرات السياسية بها، فكانت ضحية للنفي والاعتقال والسبي في كثير من الأحيان.

شعّت الحضارة الأندلسية وكان للمرأة إسهام كبير في هذا الإشعاع الحضاري والإسهام الفكري الثقافي، وكان حضورها لافتا في المصادر من خلال وفرة عدد أسماء النساء اللواتي أسهمن في الحركة العلمية والفكرية والثقافية بعامة، لكنّهن بالمقابل تعرضن للتهميش والتغيب والإقصاء من قبل بعض المؤرخين.

¹ المرجع نفسه، ص 193.

² المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ج 1، تح إحسان عباس وآخرون، دار الغرب الإسلامي، تونس، مجلد 1، 2012، ص 119، 208.207.

يعتبر تغيب النتاج النسوي من قبل بعض المؤرخين تهميشا للمرأة التي ساهمت جنبا
لجنب مع الرجل في الإشعاع الثقافي وبناء الصرح الحضاري لأمة أمّة من الأمم، وعليه وجب
تخطّي نظرة الاستعلاء والدونية، فالمرأة قسيم الرجل في الوجود البشري وليست ندًا له.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن بسّام الشنتريّ أبو الحسن علي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج3، تح إحسان عبّاس، دط، دار الثقافة، بيروت لبنان، 1997.
2. ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاف، ج1، تح إحسان عبّاس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، 1987.
3. ابن خيرة رقية، صورة المرأة الأندلسية من خلال كتاب طوق الحمامة في الألفة والإلاف لابن حزم الأندلسي (ت456هـ/1064م)، الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، العددان 5 و6، جوان 2014/2015.
4. بوفلاقة سعد، الشّعْر النسوي الأندلسي أغراضه وخصائصه الفنية، ط1، دار الفكر، بيروت لبنان، 2003.
5. جمعة أحمد خليل، نساء من الأندلس، ط1، اليمامة للطبع والنشر والتوزيع، دمشق بيروت، 2001.
6. حربي جاد الله شيرين ، صلاح محمد جرار، موقف النقد ومؤرّخي الأدب من شعر المرأة الأندلسية، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد 17، العدد 2، 2021.
7. حمدي مليكة، الإسهامات الحضارية للمرأة الأندلسية من عهد الدولة الأموية على غاية سقوط غرناطة، أطروحة دكتوراه، تخصص التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2013/2014.
8. الديوب سمر، الثنائيات الضدّية بحث في المصطلح ودلالته، ط1، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية العتبة العباسية المقدسة، العراق، 2017.
9. ذيب حمادة ياسمين عبد الله، مظاهر الصلاح عند النساء المسلمات بالأندلس رسالة ماجستير في التاريخ، كلية الآداب الجامعة الإسلامية، غزّة فلسطين، 2018.
10. دلّال، المرأة الأندلسية مرآة حضارة شعت لحظة و تشظّت، ط1، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت لبنان، 2019.
11. عبد الحميد شافع راوية، المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط قرطبة، ط1، عين للبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2006.

12. عفيفي عبد الله ، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ج3، ط1، مكتبة الثقافة، المملكة العربية السعودية، 1930.
13. كحالة عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ج1، دط، مؤسسة الرسالة، بيروت.
14. المجالي أحمد حامد ، الدور السياسي للمرأة الأندلسية (488.92 هـ / 1091.711 م)، ضمن كتاب جماعي Islam and Gender (الإسلام والجندر)، ط1، قسم التاريخ الإسلامي والحضارة، أكاديمية الدراسات الإسلامية، جامعة مالايا، كوالا لامبور، 2011.
15. المراكثي، أبو عبد الله محمد بن محمد، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ج1، تح إحسان عباس وآخرون، دار الغرب الإسلامي، تونس، مجلد 1، 2012.
16. المقرئ التلمساني أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، تح إحسان عباس، دط، دار صادر، لبنان، 1986.
17. يخلف حاج عبد القادر، جوانب من حياة المرأة في المجتمع الأندلسي، مجلة عصور الجديدة، كلية العلوم الإنسانية جامعة وهران1، المجلد 11، العدد 3، نوفمبر، 2021.
18. يوسف كريم واقدة، ديوان شواعر الأندلس، جمع وتحقيق، ط1، دار ومكتبة سامراء، العراق، 2020.

